آفاق المعرفة

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

هذا بحث حول الإعجاز العلمي في القرآن في عالم النبات والحيوان والفضاء والإنسان ، ألقي محاضرة في بعض الجامعات الإسلامية ، في دمشق وغيرها .

* * *

معنىٰ أو تعريف الإعجاز العلمي في القرآن؟

الإعجاز في اللُّغة : نسبة الآخرين إلى العجز والضَّعف ، أوعدم القدرة . وإعجاز القرآن : يقصد به إعجاز القرآن النَّاس أن يأتوا بمثله ، أي نسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الإتيان بمثله .

والمقصود بالعلم في تعبير (الإعجاز العلمي) : هو العلم التجريبي ، الذي اكتشفه العلماء نظرياً ، وأكدت التجربة الحسية المشاهدة إما بالسمع أو البصر أو اللمس أو غير ذلك مصداقيته ووقوعه ، فيتأكد في الذهن صحة النظرية المكتشفة والمعلومات التي يراد إثباتها .

وتعريف الإعجاز العلمي في القرآن : هو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي ، وثبت عدم إمكان إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ . وهذا يدل على أن القرآن العظيم كلام الله وليس كلام البشر ، لأن مايقرره القرآن قبل أن يكتشفه البشر ، دليل على أسبقية الاكتشاف والإخبار به قبل أن يتوصل العلماء إلى معرفته ، والسبق في الماضي قبل تقدم العلوم الكونية وفي بيئة متخلفة تشعرنا بنحو واضح أن هذا الكلام ليس كلاماً إنسانياً عادياً ، وإنما هو كلام الخالق المحيط علمه بكل شيء .

ولقد أعجز القرآن الكريم العرب من عدة نواح : لفظيَّة ومعنويَّة ، وروحيَّة ، وأعلنوا عجزهم عن مجاراة القرآن ومعارضته ، وأدركوا في أعماق نفوسهم أن هذا الكلام هو كلام الله ، وليس كلاماً من عند بشر .

لقد أعجزهم بيانه العجيب ، وبلاغته وفصاحته التي تفوق كلَّ ماعرفوه من أنواع الكلام ، شعره ونثره وخُطبه ومقالاته وسائر ألوان البيان ، فهو من عند الله لا من عند بشر . وهذا تصديق لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وجاءت مكتشفات العلم الحديثة ، وتعرض القرآن بصفة غير مباشرة لكثير من النظريَّات العلميَّة الجديدة في الكون والاجتماع والأخلاق والوجدان ، مما يدل على صحة قول الله تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، أي : أو لم يكف بشهادته المخبرة بما في علمه ، وهو الوحي على رسوله ، فإن الله على كلِّ شيءٍ شهيد وعليم به . والمراد بالآفاق : أقطار السموات والأرض من شمس وقمر ، ونجوم وليل ونهار ورياح وأمطار ورعد وبرق ، وصواعق ونبات وأشجار ، وجبال وبحار وغيرها .

* * *

الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي؟

هناك فرق واضح بين الاصطلاحين أو المعنيين :

فالتفسير العلمي : هو الكشف عن معاني الآية في ضوء ماترجَّحت صحته من نظريات العلوم الكونية ، أي إنه يأتي متأخراً عن اكتشاف النظرية العلمية . أما الإعجاز العلمي : فهو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً ، وثبت عدم إمكان إدراكها بالوسائل البشريَّة في زمن الوحي ـ زمن الرسول ﷺ . أي إن الإخبار أو التقرير القرآني سابق على اكتشاف النظرية العلمية .

وهكذا يظهر اشتمال القرآن على الحقيقة الكونية التي يؤول إليها معنىٰ الآية ، ويشاهد الناس مصداقها في الكون ، فيستقر بها التأويل ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٧] .

هذا الإعجاز يشير إليه القرآن إشارات في ثنايا حديثه عن الكون من السماء والأرض ، وإلا فليس القرآن كتاب علوم .

* * *

أوجه الإعجاز العلمي في القرآن؟

إن معجزة القرآن العلمية ، تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته ، فهي ظاهرة في نظمه وكلامه ، وفي إخباره عن الأولين ، وفي إنبائه بحوادث المستقبل ، وفي حِكَم التشريع وغيرها .

ولقد شاع في عصرنا الحاضر مصطلح الإعجاز العلمي ، للدلالة على أوجه إعجاز القرآن التي كشفت عنها العلوم الكونيّة والطبيعيّة ، لأن رسالة القرآن للبشر رسالة تعليمية واقعية ، فلا منافاة بين مدلولات القرآن وواقع الحياة . وهذا يدل على أن مهمة القرآن إنهاء عهد السحر والكهانة ، والأساطير والأوهام والخرافات ، التي سيطرت على الفكر الإنساني ، فلقد ظل الفكر الوثني مثلاً ، حتىٰ في عصرنا الحاضر مسيطراً على عقول بعض الناس ، فعظموا المادة الصماء ، والحجر والشجر والبشر ، فانحدروا عن المستوىٰ الإنساني الكريم ، وأراد القرآن أن ينظف أو يقتلع من أذهان البشر تلك الترهات والأوهام ليعيشوا واقعهم ، ويدركوا الحقيقة المجردة ، وليفهموا سرَّ الحياة ويكتشفوا ألغازها ، أما أصحاب الوثنية فظلت عقولهم فريسة التخلف والضياع والانحدار .

وانتظرت البشرية طويلاً بعد نزول القرآن ، إلى أن امتلكت من الوسائل العلمية مايكشف لها أسرار الكون ، وإذا بالذي يكتشفه الباحثون بعد طول بحث ودراسة ، تُستخدم فيها أدق الأجهزة الحديثة ، يُرىٰ مقرراً في آية أو إشارة في آية قبل أكثر من ١٤ قرناً ، وذلك فيما تعرّض له القرآن من حقائق .

أمثلة من الإعجاز العلمي في القرآن

(النظريات العلميَّة)

القرآن الكريم كتاب تشريع وهداية ، ودستور عبادة وأخلاق ، وليس من مقاصده تقرير بعض النظريَّات العلميَّة ، وإنما في مجال حديثه عن خلق السَّموات والأرض ، وتزيين السَّماء بزينةِ الكواكب ، وفي أثناء بيان القرآن لأحوال وأطوار الإنسان والنبات والحيوان ، بقصد إثبات وجود الله ووحدانيته وقدرته على بعث الناس مرة أخرىٰ في عالم القيامة ، في هذه المناسبات ، نجد في القرآن إشارات واضحة لتقرير سنة كونية وقانون علمي إلهي ثابت ، يتطابق مع الاكتشافات العلميَّة المقررة في القديم والحديث ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر : ٢٢] . لبيان قانون التلقيح بنقل طلع الذكور للإناث في الأزهار ، والإثمار ، فتجد الريح واسطة ضرورية لهذه العملية التي تتم من أجل تكوين الثمرة ، ولولاها لما ظهرت الثمرة ، كما أن الرياح واسطة لسوق السُّحب وإنزال الأمطار ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الروم : ٤٨] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، دلت الآية الكريمة على شيئين : أولهما ـ نظرية السَّديم : وهي أن السموات والأرض كانتا كتلة غازية ملتهبة ملتصقة ببعضها ببعضٍ ، ثم فصلت

السماء عن الأرض ، فكانت السماء كتلة غازية ملتهبة ، وأصبحت الأرض باردة تصلح لسكنىٰ الناس فيها .

والأمر الثاني ـ أن الماء مصدر الحياة لكل الأشياء ، سواء الإنسان والحيوان والنبات ، فأغلب جسد الإنسان ماء .

وقول الله سبحانه : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [النمل : ٨٨] ، دلت هذه الآية على دوران الأرض ، وأن الأرض متحركة غير ثابتة ، وهي التي تدور حول الشمس ، وليست الشمس مثلاً هي التي تدور حول الأرض ، وبذلك قضىٰ القرآن على النظرية والجدل القديم وهي أن الشمس متحركة والأرض ثابتة .

وقوله سبحانه : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾ [الزمر : ٥] ، يفهم منه كروية الأرض ، لأن التكوير هو اللف على الجسم المستدير ، وقد سبق علماؤنا كالفخر الرازي علماء الغرب والشرق إلى تقرير كروية الأرض ، وأنها مكورة غير مسطحة وأنها هي التي تدور حول الشمس ، لا العكس . وأكَّد هذا اكتشاف الفضاء والأقمار بالسفن الفضائية حين رأوا الأرض مثل الكرة معلَّقة في الفضاء .

وقوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ ﴾ [الرعد : ٤١] ، يرشد إلى كون الأرض مفلطحة غير تامة التكوير ، وهذا ماأكَّده العلم الحديث .

وقوله سبحانه : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ـ٢٠] ، دال بشكلٍ واضح على عدم اختلاط الماء الملح بالماء العذب في مصبٍّ واحد . وأكدت الاكتشافات البحرية وجود هذا الفاصل بين الماءين . ومنه كلمة دولة (البحرين) وفيها إلى الآن ماءان : عذب وملح . وفي آية أخرىٰ : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ

لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل : ٦١] ، وفي آية ثالثة : ﴿ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان : ٥٣] ، إن الذي أرسل البحرين عذباً وملحاً هو الله تعالىٰ ، والجاعل حاجزاً بينهما : هو الله تعالىٰ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٢ـ١٤] هذه الآية دلَّت على مراحل خلق الإنسان ، ويتطابق ذلك مع أحدث النظريات والعلوم الطبية الحديثة .

* * *

في أي شيء تتمثل أوجه الإعجاز العلمي في القرآن؟

تتمثل هذه الأوجه في أمور كثيرة عجيبة أهمها ما يأتي :

١ـ في التوافق الدَّقيق بين نصوص القرآن وبين ما اكتشفه علماء الكون ، من حقائق كونيَّة وأسرار علميَّة ، ولم يكن في إمكان البشر أن يعرفوها وقت نزول القرآن .

٢ـ تصحيح القرآن لما شاع بين البشريَّة من أفكار مغلوطة حول أسرار الخلق ، مثل ماكان شائعاً بين علماء التشريح أن الولد يتكون من دم الحيض ، واستمر ذلك الاعتقاد إلى أن اكتشف المجهر في القرن السادس عشر الميلادي أن الإنسان يخلق من المني . وهذا ما أبانه القرآن في قول الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجده : ٧ـ٩] ، وجاء في سورة النجم : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾

[النجم : ٤٥ـ٤٦] .

٣ـ النصوص القرآنية إذا جمعت يكمِّل بعضها الآخر ، فتجلىٰ بها الحقيقة ، مع أنها قد نزلت مفرقة في الزمن ، وفي مواضع مختلفة من القرآن ، وهذا لايكون إلا من عند الله الذي يعلم السِّر في السَّموات والأرض . قال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء : ٨٢] .

٤ـ سنّ التشريعات الحكيمة التي قد تخفىٰ على الناس وقت نزول القرآن وتكشفها بحوث العلماء في شتىٰ المجالات ، مثل ماكشفه العلم حديثاً من حكمة تحريم أكل لحم الخنزير ، وفي غسل نجاسة الكلب سبعاً إحداهن بالتراب . كما ورد في السُّنَّة النَّبويَّة ، واستثنىٰ القرآن كلاب الصيد للحاجة أو الضرورة ، فلا يغسل معض الكلب في الشيء المصيد ، وكأن الكلب حال جريه يتطهر لعابه من الميكروب ، فلا ينتقل إلى الصيد .

وقائع من الإعجاز العلمي في الطبيعة الإلهية المخلوقة في القرآن الكريم :

ينبهر النَّاظر في القرآن الكريم في مظاهر الإعجاز العلمي في الطبيعة المخلوقة الدَّالة على كمال قدرة الله تعالىٰ ، في خلقه الأشياء المتنوعة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، فيخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها ، من هذه المظاهر ما أشارت إليه الآيات الآتية في سورة فاطر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٧ـ٢٨] .

أي : ألم تشاهد أيها الإنسان أن الله تعالى خلق الأشياء المختلفة من الشيء الواحد ، فأنزل الماء من السماء ، وأخرج به ثماراً مختلفة الأجناس والأنواع والطعام والروائح والألوان ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك ، كما قال الله تعالىٰ في آية أخرىٰ :

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۖ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] .

وخلق الله الجبال الرَّواسي كذلك مختلفة الألوان ، كما هو مشاهد من بيض وحمر ، وفي بعضها طرق وهي الجُدَد مختلفة الألوان أيضاً .

وخلق الله أيضاً خلقاً آخر من الناس والدواب والأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم مختلفة الألوان في الجنس الواحد ، بل وفي النوع الواحد ، وفي الحيوان الواحد ، كاختلاف الثمار والجبال . وهذا كله أوضحته علوم الحيوان والطبيعة والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) دون تعارض مع القرآن .

ثم عقّب الله على ذلك مشيراً لأهمية وجود العلماء ومكانتهم ودورهم في إدراك عظمة الخلق ، فذكر الله تعالىٰ أنه يخاف اللهَ بالغيب العالمون به ، والذين يدركون ما يليق بالله من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وهذا كله أدركه علماء الكون بدقة وشمول ، ونبّه القرآن إليه قبل معرفة نظرياتهم .

* * *

ألوان من الإعجاز العلمي في عالم النبات

ليس هناك في العالم الأرضي أجمل ولا أبدع من عالم النبات ، ففيه بهجة الحياة ، ومسرة العين والقلب وراحة النفس ، وكل مايتحدث عنه علماء النبات ، من دراسة تطورات الزروع والأزهار والثمار ، وكيفية إعمارها وتزاوجها ، نجده مفصلاً في القرآن الكريم في آيات كثيرة تدل على عظمة القدرة الإلهية ، وكون القرآن من عند الله تعالىٰ ، في وقت لم يكن التقدم العلمي واضحاً في مجال النباتات ، وهذا مانجده في آيات القرآن التي سجلت أبدع دقائق النبات والزرع والشجر ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق : ٧-١١] .

انظر إلى ظاهرة تزاوج النباتات في قوله تعالىٰ : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ .

وانظر إلى ظاهرة الإحياء المائي : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ .

وانظر إلى جمال التَّناسق والتَّراكيب في جمال الحبوب المتراكمة والنخيل الباسقة وثمرها المنضد بعضه فوق بعض ، والمتراكم بعضه على بعض ، ومهما أبدع الواصفون لايجدون مثل هذا الوصف لجمال الطبيعة المخلوقة من الله في الزروع والأشجار .

ويتكرر هذا الوصف العلمي المبهر في آيات أخرىٰ كثيرة ، مثل قوله

تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ١٠-١٢] . وكأنك في هذه الآية أمام بستان نضجت زروعه وثماره وزيتونه ونخيله وعنبه وجميع ثمراته الصيفية .

وفي آية أخرىٰ مماثلة : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : ٦٠] .

انظر في هذه الآية وماتضفيه من جمال ، وكأنك أمام حديقة غنَّاء ذات أزهار متنوعة ، بيضاء وحمراء وصفراء وبنفسجية وغيرها ، تحتضنها خضرة الربيع ، ويتعشقها الرسامون والفنانون .

* * *

نماذج من الإعجاز العلمي في عالم الأحياء

يتميز عالم الأحياء البديع عن عالم النبات بالحياة والحركة المتنقلة والمتغيرة ، ويصف العلماء دقائق هذا العلم بدءاً من بداية التكوين إلى نهاية الحياة ، وقد سبق القرآن إلى تصوير عالم الأحياء تصويراً علمياً موجزاً يلفت النظر ويبعث على التأمل والتفكر ، كما جاء في قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

تشير الآية الكريمة وغيرها إلى تكامل عناصر الحياة : وهي الرُّطوبة المتمثلة بالماء ، والتربة التي لابد منها ، والحرارة التي يحتاجها النبات ، وكذلك الهواء ، وبغير هذه العناصر الأربعة الضرورية لاتوجد الحياة ، ولكن خالق هذه العناصر هو الله ، المتميز بالقدرة التامة على الخلق والإبداع ، ثم الإماتة والإبادة ، ثم الانتقال إلى عالم الآخرة بحسب علم الله وحكمته وتقديره . والماء من بين هذه العناصر أهمها ، فهو أساس الحياة ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور : ٤٥] .

وتؤكد آية أخرىٰ مراحل الحياة في الأشياء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ

﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] [الأنعام : ٩٩] ، وعملية إنزال المطر من الغيم أو السحاب واضحة في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور : ٤٣ـ٤٤] .

إن هذه الأمثلة على الإعجاز العلمي في عوالم النبات والطَّبيعة والحيوان سبقت كلَّ الدراسات المفصلة لدىٰ علماء هذه المواد ، وأبانت الدِّقة المتناهية في تصوير مراحل النمو والتطور ، والإبداع والتصوير ، ليعطينا الله تعالىٰ الدليل القاطع على أن القرآن المجيد كلام الله الذي : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

* * *

(١) قنوان : أي عراجين وعناقيد التمر كعناقيد العنب ، والطَّلع : أول مايبدو ويظهر من زهر النخلة قبل انشقاق الغلاف .